إشكالية الهوية في الفكر العربي المعاصر محمد عابد الجابري نموذجاً

The problem of identity in contemporary Arab thought, Muhammad Abed Al-Jabri as an example

د. عبدالمنعم امحمد سالم

كلية الآداب السواني - جامعة طرابلس

Dr. Abdel Moneim Mohamed Salem

Faculty of Arts, Al-Sawani
University of Tripoli

a.idheebat@uot.edu.ly

ملخص البحث :

لقد تناول هذا البحث إشكالية الهوية عند نموذج من نماذج الفكر العربي المعاصر وهو المفكر الإسلامي محمد عابد الجابري، حيث ارتبط اسمه بمشروعه لنقد العقل العربي، وتحليله لبنية هذا العقل وتكوينه، ومحاولته التوفيق بين التراث والحداثة، أو كما يسميها بين الأصالة والمعاصرة، معتمداً على المناهج العلمية الحديثة، التي أنتجتها العقلانية الغربية الحديثة.

ويعود سبب الاختيار لهذا المفكر الإسلامي أيضاً إلى أنه يكاد يفكر في موضوع واحد يختلف عن غيره من المفكرين، وهو إعادة قراءة التراث ونقد سلبياته، وأن الأهداف التي يريد التوصل إليها من وراء مشروعه هو (تحقيق نهضة الأمة)، كما أن المنهج الذي اختاره لمشروعه يقوم على التأسيس لنقد العقل العربي الإسلامي، وتحريره من كل القيود التي تكدست عليه وكبلته لمئات السنين. كما لا يخفى على المتابعين له أنه كان مهموماً بمفهوم الهوية المعاصرة الذي يناسبنا اليوم، ونحن نعيش مفترق طرق شبيه بذلك الذي عشناه غداة عصر النهضة العربية.

أما عن تجليات مفهوم الهوية عنده، والذي هو موضوع بحثي، حيث نتناول تداخل مفهوم الهوية لدى الجابري بمفاهيم مثل التراث والديمقراطية والعقل العربي، والقومية، والوحدة العربية، الأمر الذي دفع بالجابري إلى الاعتراف بأن الهوية عند العربي ليست واحدة، بقدر ما هي صور متعددة للهويات، بحسب وعي الناس، والمنظور الذي يرون من خلاله ذاتهم ووضعهم التاريخي، والصورة التي يرسمونها لمستقبلهم. مركزاً اهتمامه على تحطيم الثنائيات التي وجدها تقبع خلف تلك الهويات، وهي ثنائيات لعبت دوراً كبيراً في نشوء أوهام راسخة عن ضرورة أن نختار هوية محددة، ونرفض احتمالات أو إمكانات أخرى قد تقبع داخل هوية منفتحة، إذ لا يوجد شيء عقد مفهوم الهوية في العالم العربي مثل تعدد المرجعيات المتبادلة.

Research Summary

This research addresses the problem of identity in the work of one of the models of contemporary Arab thought, namely the Islamic thinker Muhammad Abed Al-Jabri, whose name is associated with his project to critique the Arab mind, his analysis of the structure and formation of this mind, and his attempt to reconcile

heritage and modernity, or as he calls it, authenticity and modernity, relying on modern scientific methods produced by modern Western rationality.

The reason for choosing this Islamic thinker also stems from the fact that he focuses almost exclusively on a single theme, setting him apart from other thinkers: the re-reading of Islamic heritage and the critique of its shortcomings. The goal he seeks to achieve through his project is the revival of the Muslim nation. Furthermore, the methodology he has chosen for his project is based on establishing a critique of the Arab-Islamic mind, liberating it from all the constraints that have accumulated and shackled it for centuries. It is also clear to those familiar with his work that he was deeply concerned with the concept of contemporary identity, a concept relevant to us today as we find ourselves at a crossroads similar to that which we experienced in the aftermath of the Arab Renaissance.

As for the manifestations of his concept of identity, which is the subject of my research, we will examine the intersection of al-Jabri's concept of identity with concepts such as heritage, democracy, the Arab mind, nationalism, and Arab unity. This led al-Jabri to acknowledge that identity for Arabs is not singular, but rather comprises multiple facets of identity, depending on people's consciousness, the perspective through which they view themselves and their historical situation, and the image they envision of their future. He focused his attention on dismantling the dualities he found underlying these identities—dualities that played a significant role in the emergence of deeply entrenched illusions about the necessity of choosing a specific identity and rejecting other possibilities or potentialities that might exist within an open identity. Indeed, nothing has complicated the concept of identity in the Arab world more than the multiplicity of overlapping points of reference.

مفهوم الهوية عند الجابري:

عندما نتحدث عن مسألة الهوية عند الجابري، فإننا نلاحظ حضور "مفهوم الهوية في العالم المعاصر"، الذي يزداد تشابكاً وتعولماً، ينقسم المفكرون المهتمون بقضايا الهوية والأصالة والحداثة إلى قسمين:

الأول يذهب إلى أن عصر الهويات والقوميات والأيديولوجيات واليوتوبيا قد انتهى، وأن العصر اليوم هو عصر الثورة التكنولوجية والمعلوماتية ووسائل الإعلام.

أما القسم الثاني من المفكرين فيذهب إلى أن عصر الهويات والقوميات لم ينته، بل على العكس فنحن نشهد اليوم، ونحن في نهاية القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين انبعاث للروح القومية، وعودة محمومة للهويات. وما كتابات المفكر الأمريكي صموئيل هنتنجتون حول صدام الحضارات

والثقافات، وتقسيمه العالم إلى هويات حضارية متصارعة، وتبشيره بصراع طويل بين الإسلام والغرب[1] سوى دليل ساطع على تلك العودة.

أما الجابري فإنه يتفق مع القسم الثاني، ويبين أن التأمل لواقع السياسات الدولية والأيديولوجيا الفاعلة في الغرب والشرق، يؤكد أن هناك انبعاثاً واضحاً للتمسك بالهويات وبروز ملفت للانتباه للنزعات القومية، سواء في العالم الإسلامي، أو الشرقي عموماً، وكذلك في العالم الغربي أيضاً، ولاسيما في الولايات المتحدة. وهذا يعني في النهاية أن "هاجس الهوية" ما زال قابعاً في وعي الناس ووجدانهم، أكثر من أي وقت مضى، وبالتالي فإن البحث في مسألة الهوية بالنسبة له ليس بحثاً في قضية تتعلق بالماضي أو بأحلام عفى عليها الزمن، بل على العكس إنه بحث في قضية راهنة، يزداد حضورها على المستوى العالمي يوماً بعد يوم، وتكاد تستولى على المجال الثقافي والسياسي العالمي، لاسيما وأن توظيف الانتماءات القومية والعرقية، أصبح سلاحاً تستخدمه كثير من الدول، التي تعد نفسها رائدة في مجال الديمقراطية، بغية توجيه السياسات العالمية[2].

أما الاستراتيجية التي يتعامل من خلالها الجابري مع مفهوم الهوية فهي استراتيجية التحليل والنقد، بغية تخلصه من الكثير من الأفكار والأوهام التي أحاطت به. فمفهوم الهوية مفهوم معقد ومتشابك، وتتفاعل فيه مستويات مختلفة من التفكير، فهو مفهوم أيديولوجي ونفسي وسياسي وثقافي بنفس الوقت، وتدخل في تكوينه اللغة والثقافة والشخصية والتاريخ والتراث والمواطنة وحتى المصالح القومية والوطنية.

ومن خلال ذلك نجد أن مفهوم الهوية عند الجابري بعيد كل البعد عن أن يكون موضوع ميتافيزيقي مجرد أو موضوع تأمل للفكر المنطقي، بل هي أولاً وقبل كل شيء مسألة سياسية وحضارية ونفسية، ولابد من التفكير بها من جديد، وبشكل يتجنب "الأفكار الجاهزة التي تتبادر إلى الذهن لتضفي وضوحاً زائفاً على الموضوع"[3]. وهذا يعني أن الجابري مدرك كل الإدراك أن الخيارات المريحة بين التحزب للهوية التقليدية ورفضنا للعولمة، أو بين الأخذ بالتراث وإدارة الظهر للحداثة أو المعاصرة، أو الخيارات العكسية التي ترتمي في أحضان العولمة المعاصرة ضاربة عرض الحائط بالتراث وهويتنا الإسلامية أو العروبية، أقول إن الجابري مدرك أن مثل تلك الخيارات الحادة أمر لم يعد مقبولاً اليوم، لأننا لا يمكن أن نستغنى عن هويتنا التقليدية، وتراثنا الذي هو جزء أساسي من شخصيتنا الحضارية، مثلما لا يمكن لنا أن ندير ظهرنا لمنجزات الحداثة الكبرى. وعلى ذلك فالمسألة بحاجة إلى منهج لمقاربتهما، هذا المنهج الذي يتناول من خلاله الجابري مسألة الهوية فهو ما يسميه ب"المنهج العلمي" الذي يسعى من خلاله إلى تحرير مسألة الهوية من الأيديولوجية والخطابات العاطفية، وتعقيدها على أسس منهجية تحول موضوع الهوية إلى موضوع للبحث العلمي[4].

هذه المهمة يجب أن تقوم بها الفلسفة، فالفلسفة اليوم هي التي عليها أن تتصدى لمهمة إعادة بناء المفاهيم، عن طريق تفحصها ونقدها وتحليلها، سيما وأن العالم يشهد اليوم مرحلة جديدة تلاشت فيها

---

(1) انظر صمويل هينتغتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قانصوه، سطور، القاهرة، ط2، 1999، ص403.

(2) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2012، ط4، ص153-154.

(3) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي، ملاحظة منهجية، مجلة الوسط، لندن، العدد 383، تاريخ 1999/5/31، ص35.

(4) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي، ملاحظة منهجية،مرجع سابق، ص35.

منظومات فكرية عديدة، حيث تجمدت الوجودية وتكلست الوضعية المنطقية، وأخذت فكرة العولمة تهدد القومية[5]. وضمن هذا المنظور يحاول الجابري أن يعيد التفكير بمفهوم الهوية، عبر رسم ملامح هذا المفهوم في علاقته بالعروبة والإسلام أولاً، ثم بالعلاقة مع الأصالة والمعاصرة ثانياً، ثم بالعلاقة مع الغرب ثالثاً. فالعالم العربي، وفي ظل الأحداث والتطورات التاريخية التي يمر بها، بقي متمسكاً بسؤال الهوية: من نحن؟ وماذا نريد أن نكون؟ وبعبارة أخرى: ما هي هويتنا؟ غير أن مشكلة سؤال الهوية بالنسبة للجابري أنه يغرق في جملة من أزواج أو ثنائيات من قبيل الإسلام/ العروبة، الدين/ الدولة، الأصالة/ المعاصرة، الوحدة/ التجزئة[6]، بحيث يكون المطلوب هو الفصل بين هذه الثنائيات واختيار واحدة على حساب الأخرى بطريقة حادة.

حتى المثقف العربي تورط في هذا الاختيار بين هذه الثنائيات، وتمترس خلف أحد الخيارات على حساب الخيار الآخر، بحيث تحول الأمر إلى سمة عامة تكاد تطبع الفكر العربي الحديث في تفكيره بمفهوم الهوية ومستقبل العالم العربي. ولذلك يعتقد الجابري أن البدء في التفكير بمفهوم الهوية، وإعادة بنائه من جديد في العالم العربي الإسلامي يكون بإعادة النظر في تلك الثنائيات، وكشف الزيف في الاختيارات التي وضع المثقف العربي نفسه داخلها. يقول الجابري: "سأحاول إذاً أن أناقش معكم هذه الأزواج لا من منطلق ما قيل حولها أو فيها أو بصددها، بل من منطلق آخر، يستهدف طرح كيف يجب أن نفكر في هذه الأزواج في المستقبل. إن الأمر يتعلق بمشروع إعادة التفكير في أزواج عمل الفكر العربي حتى الآن على تجنب طرحها بصراحة، أعني كما هي في الواقع، من غير مجاملة ولا خوف ولا تخوف"[7].

أ) الهوية بين العروبة والإسلام:

تعود مشكلة العلاقة بين العروبة والإسلام إلى "قضية ينصرف التفكير بها إلى الكيفية التي يجب أن نرتب بها العلاقة بين العروبة والإسلام في تحديد هوية سكان المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً، وبين البحر الأبيض المتوسط وتركيا شمالاً والصحراء الكبرى والمحيط الهندي جنوباً، هذه المنطقة التي يسكنها (أقوام) يتكلمون اللغة العربية في الغالب، أو على الأقل يتخذونها لغة ثقافة"[8]. والمقصود بالترتيب: أي من طرفي الثنائية يجب أن يكون له الأولوية بحيث يكون هو المحدد الأساسي لهويتنا، وهل هويتنا أولاً وقبل كل شيء إسلامية أم عروبية؟

يحاول الجابري أن يحصي الآراء والمواقف من هذه الثنائية فيجدها تنقسم إلى أربعة مواقف[9]:

1) التوفيق بين العروبة والإسلام مع إعطاء الأولوية للعروبة: وحجة هؤلاء أنه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين العروبة والإسلام، لأن كل واحد منهم يكمل الآخر. فبالنسبة لهؤلاء "العرب مادة الإسلام"، وأن "الإسلام عربي"، لأنه "دين العرب". كما أن "القرآن عربي"، ولذلك نجد هذا الموقف يؤكد على أهمية العنصر العربي في الفتوحات الإسلامية وإقامة الحضارة الإسلامية، لينتهي إلى القول بعروبة الإسلام، وأن

(5) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت 1997،ط1، ص10.
(6) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت 1990، ص102-103.
(7) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص103.
(8) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، 2012، ص21-22.
(9) المرجع السابق، ص22-26.

الإسلام سيبقى عربياً لأن أحكامه إنما تستخلص من القرآن العربي وبيانه الرفيع، مثلما أن الاجتهاد لا يمكن أن يكون إلا بالعربية.

2) التوفيق بين العروبة والإسلام مع إعطاء الأولوية للإسلام: وهو موقف يؤكد أنه وعلى الرغم من أن العرب هم بالفعل مادة الإسلام، وهم الذين نشروا الإسلام وكان لهم دور كبير في بناء الحضارة الإسلامية، إلا أن العرب ليسوا وحدهم من حقق تلك الإنجازات، بل هناك شعوب كثيرة شاركت في تلك الإنجازات، وأن دورها لا يقل أهمية عن دور العرب. أما الحجة التي تقول إن القرآن عربياً فيمكن الرد عليها بأنه أيضاً كتاب موجه إلى كافة الناس والأقوام، وأنه كثيراً ما يصف الناس بالمسلمين ولا يكتفي بوصفهم بالعرب، حتى إنه كثيراً ما يستخدم مصطلح الناس أو الإنسان، وفي ذلك دليل على نزعته العالمية أو الكونية، الأمر الذي لا يجوز معه الاكتفاء بالتأكيد على عروبته، دون أن ينسى أصحاب هذا الموقف التأكيد على أن العربية ليست حكراً على العربي بل إن هناك شعوباً كثيرة تعلمتها وأبدعت فيها، كما أن لغة القرآن شيء والإسلام شيء آخر.

3) الاتجاه العروبي: وهو اتجاه يشدد على العروبة والقومية العربية، لدرجة أنه يرى أن "القومية تعلو على الدين" و"أعم منه"، أي أن الدين ليس جزءاً أو مكوناً للقومية ولا يدخل فيها. وهذا يعني أن المنتمين إلى أديان مختلفة يمكن في النهاية أن يشكلوا أمة واحدة.

4) الاتجاه الإسلامي: وهو اتجاه يؤكد على "أن الدين يعلو على القومية"، وأكبر منها شأناً. عندما يفكر الإنسان بهويته بشكل حقيقي، وهو يذهب على عكس الاتجاه العروبي إلى أن "الجماعة الدينية" أو الانتماء الديني أعم وأعلى من الانتماء القومي، والدليل على ذلك أن الأمة الإسلامية تشتمل على عدة قوميات وشعوب مختلفة العرق والأصل.

واستناداً إلى هذا التقسيم، يرفض الجابري المواقف السابقة بأكملها، المعتدل منها والمتشدد، حيث إنها لم تعد مجدية أولاً وأنها محقة فيما تثبت وغير محقة فيما تنفي ثانياً[10]. فالمسألة هنا لا تخضع للمنطق الثالث المرفوع، (إما... وإما...)، بل تخضع "المنطق الصيرورة" أو "المنطق الجدلي"، الذي ينتهي فيه التعارض والصراع بين الإثبات والنفي إلى نفي النفي. كما أن هناك بعض القضايا المزيفة التي يعود زيفها إلى أن كل طرف يستخدم المفاهيم والألفاظ بمعاني مختلفة، ناهيك عن المرجعيات الأيديولوجية لكل طرف مختلفة كل الاختلاف عن مرجعيات الطرف الآخر[11]. ومن خلال ذلك يجد أنه لابد من إخضاع كل تلك المواقف لمراجعة نقدية صارمة لتحديد ما هو زائف وما هو حقيقي، وتوجيه نقد داخلي لكل أيديولوجية من تلك الأيديولوجيات. فالجابري لا ينتصر لطرف على آخر، بقدر ما يحاول الدفع بكل طرف إلى فهم نفسه والآخرين بشكل أكثر موضوعية وأكثر علمية. وهذا يتحقق عند الجابري بالتأكيد على النقاط التالية:

1) تحديد المفاهيم: فقد لاحظ الجابري أن إحدى مشكلات تلك النقاشات عدم تحديد المفاهيم المستخدمة، بحيث يتناولها كل طرف بمعنى مختلف عن الطرف الآخر. ولذلك لابد من الاتفاق أولاً على حد أدنى من المعنى المشترك للمفهوم[12]، حتى يمكن إيجاد لغة مشتركة، بحيث لا يتحول الحوار إلى "حوار

([10]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مرجع سابق، ص27.
([11]) المرجع السابق، ص27.
([12]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مرجع سابق ، ص29.

طرشان". وتعرف هذه المشكلة في المنطق باسم "مغالطة الاشتراك اللفظي"[13]، وتعني استخدام لفظ ما على أنه مشترك بين المناقشين، في حين أن كل طرف يستخدمه بمعنى مختلف عن الآخر، الأمر الذي يؤدي إلى أن النقاش يزيد في الاختلاف ويدفع بالطرفين إلى حد التناقض.

2) إدراك الاختلاف في المرجعيات: إذ لابد لكل طرف أن يعرف، وبوضوح، أن الآخر ينطلق من مرجعية أيديولوجية مختلفة عن مرجعيته، وأن له هموم ومخاوف ومصالح ورؤى مختلفة عما عنده. وبمعنى آخر فإن النقاش بين العروبيين والإسلاميين كثيراً ما يتجاهل الآخر. وهذا التجاهل كثيراً ما يزيد من الفجوة، بحيث يكون كل طرف "مشدوداً إلى ما يسمعه في داخله وليس إلى ما يقوله خصمه، ويكون فيه (المتكلم) يناجي نفسه حينما يتكلم"[14]. وبتطبيق هاتين النقطتين على العلاقة بين العروبة والإسلام في الفكر العربي المعاصر، يعتقد الجابري أنه يستطيع الوصول إلى عدة نتائج هامة، منها:

1) أن مفهوم العروبة، عندما ظهر في القرن التاسع عشر، أي في عصر النهضة العربية، كان بقصد مواجهة سياسة التتريك التي لجأت إليها السلطنة العثمانية، والتي حاولت من خلالها صهر العرب في بوتقة السلطنة العثمانية، وأنه لم يكن مهتماً بالمرجعية التراثية لمفهوم العرب، والتي تجعل منهم أقوام تعود إلى قحطان وعدنان التي عاشت في الجزيرة العربية، وقامت بهجرات إلى مختلف المناطق المحيطة بمركز تواجدهم. ثم بعد ذلك تحدد مفهوم العرب بوصفه "الهوية" التي تحمي العرب من السياسيات الاستعمارية الأوروبية، التي أرادت تلك البلدان فرضها على العرب، سواء في المشرق العربي أو في مغربه. هكذا يجد الجابري أن "مفهوم (العروبة) يتحدد، ليس بالعلاقة مع (الإسلام)، ولا كدين، ولا كحضارة، بل بالعلاقة مع (الآخر) التركي الحاكم المتحكم، والآخر الأوروبي المستعمر"[15].

2) أما مفهوم أو شعار الإسلام في المرجعية الحديثة، أي مرجعية عصر النهضة، فقد ظهر كرد فعل على التهديد القادم من التوسع الاستعماري الأوروبي. وبما أن الدول الأوروبية مسيحية، وتستحضر في الذاكرة الحروب الصليبية، فقد كان من الطبيعي أن يكون رد الفعل ذو مسحة إسلامية، عبر طرح مفاهيم وحلول تدفع المسلمين إلى تكتل كبير يجمع بينهم ويزيد في قوتهم، ويبدو أن دعوات جمال الدين الأفغاني في إنشاء "الجامعة الإسلامية" أتت في هذا السياق[16].

3) وهذا يعني أن وضع الإسلام والعروبة كطرفين لابد من اختيار أحدهما مسألة مزيفة وغير جوهرية، وتعود إلى عدم إدراك للسياق الذي نشأت فيه الدعوات للعروبة أو للإسلام. فأنصار الهوية الإسلامية كانت وجهة نظرهم تقوم على التأكيد على ضرورة مواجهة الاستعمار الأوروبي أولاً، وإن أدى هذا الأمر إلى مهادنة السلطنة العثمانية، حتى ولو كانت هذه السلطنة متخلفة ومتعصبة، وقد أخذ بهذا الرأي غالبية المسلمين في المغرب العربي، وقد يعود ذلك لبعد السلطنة العثمانية عنهم، أو لعدم تسلطها على الناس في ذلك المكان. أما أنصار الهوية العروبية فقد رأوا أن الخطر العثماني أكثر خطورة من الخطر الاستعماري الأوروبي لأنه يمس الوجود العربي، ولذلك لابد من إعطائه الأولوية، وهذا يعني أن التمسك بالهوية العروبية

([13]) ارفنج إم. كوبي – كارل، كوهن، مدخل إلى المنطق، ترجمة محمود السيد أحمد، نجيب الحصادي، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، 2013، ص260.

([14]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب ، مرجع سابق ، ص30.

([15]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مرجع سابق ، ص40.

([16]) المرجع السابق ، ص40-41.

يعني التمسك بالوجود في المستقبل ومقاومة محاولات الصهر والتلاشي[17]. وعلى ذلك فإن الجابري يرجع الاختلاف في المواقف بين القائلين بأولوية الهوية العربية أو الهوية الإسلامية إلى الاختلاف في الأوضاع التاريخية والظروف السياسية لا أكثر.

ولذلك نجده يؤكد أن "التقابل بين (العروبة والإسلام) الذي أخذ يتبلور من خلال هذين الموقفين لم يكن تقابلاً ماهوياً فلم يكن الاختيار المطروح أن نختار العروبة أو الإسلام، بل كان - أي الهويتين يجب أن يقام أولاً، وبالتالي أي السلاحين يجب أن يحرك في البداية: سلاح العروبة أو الإسلام؟ فالثنائية إذاً لم تكن ثنائية على صعيد الهوية بل كانت على مستوى الإرادة التي ينبغي تحريكها للدفاع عن الهوية وحمايتها"[18].

نخلص مما سبق أن الثنائية التي تحكم تفكير عدد من المفكرين العرب المعاصرين هي ثنائية وهمية، وهي تشبه وضع يمكن أن يخير فيه الباكستاني أو الإيراني بين أن يكونوا مسلمين أو يكونوا باكستانيين أو إيرانيين، بمعنى أنها وضع ليس له معنى، مثلما لا معنى لأن يوضع الإنجليزي بين اختيارين، إما الإنجليزية وإما المسيحية. وعلى ذلك يصل الجابري إلى نتيجة تفض الاشتباك بين هذين الموقفين: إن انتماء الإنسان إلى وطن ما، أو إلى قومية ما لا يرتبط البتة بالدين الذي يعتنقه، فهذا شيء، وذلك شيء آخر[19]. لذلك لا معنى أبداً أن يتم وضع سكان البقعة الجغرافية الممتدة من المحيط إلى الخليج بين اختيار أحد أمرين: إما أنا يكونوا عرباً وإما أن يكونوا مسلمين، فمن الطبيعي جداً أن يكونوا الاثنين، وهذا يعني أنه يجب تحرير الهوية من الثنائيات التي تم فرضها بغير وجه حق. وتعتبر دعوة الجابري هذه رد على بعض دعوات الأحزاب الإسلامية والتي ترى أن الإسلام دين ووطن، فتتم مصادرة الوطن لصالح الدين، وبهذا دمج للهوية الوطنية مع الهوية الإسلامية.

ب) الهوية بين الأنا والآخر:

عندما يتناول الجابري أي مفاهيم، مثل: الهوية، المستقبل، الماضي، الأنا، الآخر، لا يحبذ الدخول في جدالات فقهية ولغوية حول المفهوم، بقدر ما يميل إلى قراءة المفهوم نفسه، أو التفكير فيه، لأن المفهوم في النهاية ما هو إلا "التعبير المكثف عن واقع معين"[20]، وهذا يعني أن لكل مفهوم بعدين: الأول فكري، أي الفكر الكلي الذي يتناول المفهوم، والثاني الواقع المعقد الذي يريد المفهوم أن يقاربه.

ولذلك نجد أن الجابري عندما يقوم بمقاربة مفهوم "الهوية" فإنه ينظر إليها في السياق الواقعي الذي يستخدم فيه، متحاشياً السياق المثالي أو "المجرد"، لأن مثل هذا السياق يدخل المفاهيم في وضعية الغموض، ويجعلها ضبابية أكثر من كونها واضحة، في حين أن المطلوب في عملية تحديد المفاهيم هو الوضوح وليس الغموض، الإغناء وليس الإفقار[21]. ضمن هذا السياق يمكن القول إن أي تحليل لمفهوم "الهوية" اليوم، إنما هو يقوم على مفاهيم: المستقبل، الأنا، الآخر، وأنه ليس لمفهوم الهوية من معنى خارج العلاقة مع كل من تلك المكونات. وبهذا المعنى فإن مفهوم الهوية مفهوم مركب من مجموعة من المفاهيم تربط بينها علاقات محددة. ولكن ما هو المقصود بتلك المفاهيم المكونة لمفهوم الهوية، بالنسبة للجابري:

([17]) المرجع نفسه، ص42.
([18]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مرجع سابق ، ص42.
([19]) المرجع السابق، ص52.
([20]) محمد عابد الجابري، في غمار السياسة: فكراً أو ممارسة، ج3، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2010، ص249.
([21]) محمد عابد الجابري، في غمار السياسة، مرجع سابق، ص249.

1) المستقبل: لا يفكر أحد بهويته إلا بوصفها الهوية التي سيكون عليها في الحاضر والمستقبل كما أن مفهوم المستقبل يخفي داخله ثلاثة أبعاد أساسية[22].

البعد الأول: وهو المستقبل المصرح به، وهذا يقابل تفكير العرب في كيفية بناء مستقبلهم، وبالتالي كيفية إعادة ترتيب علاقاتهم مع حاضرهم على صعيد التفكير.

البعد الثاني: ويتعلق بـ"التطورات المحتملة" أو الانطلاق من الوقائع لرسم ممكنات المستقبل، وهذا البعد يجب أن يتبع الأساليب العلمية في دراسة الظواهر والكشف عن العوامل الفاعلة في تلك الوقائع، والتعرف على اتجاه فعلها، ونوع تفاعلها مع الاحتمالات التي يمكن أن نعمل على تحقيقها في المستقبل.

البعد الثالث: وهو "الآخر"، فالإنسان لا يفكر في مستقبله إلا بوصفه مستقبلاً مشتركاً مع الآخرين، وعلى ذلك فإن التفكير في المستقبل هو، في جانب منه، عمل من أجل ترتيب العلاقة مع "الآخر". والآخر في الغالب هو من ينافسنا، أو يهددنا، أو يستهوينا، أو يتقدم علينا، أو يتحدانا، ولذلك فإنه هو الذي يدفعنا إلى التفكير في المستقبل، أي التفكير في كيفية إثبات ذاتنا أمام ذلك الآخر وتحدياته، بغية تأمين وجود مستقبلي يحقق رضانا عن ذاتنا ومكانتنا في المستقبل.

2) الماضي: ذلك أن كل تفكير في الهوية لا يمكن أن يتجاهل "حضور الماضي" في لا وعينا. وهذا ما يسميه الجابري بـ"المستقبل الماضي"، ويقصد به حضور الماضي عندما نفكر في المستقبل بوصفه حافز أو موجه أو معبئ[23]. ويأخذ هذا الحضور الماضي عدة أشكال للتمظهر: فهناك من جهة "الطموحات التي عبر عنها الأسلاف ووضعوها مشروعاً لمستقبلهم ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيقها، فيدخلها الأخلاف كجزء من مشروع مستقبلهم. وهناك، من جهة ثانية، الممكنات التي يبدو للأخلاف أنه كان يمكن للأسلاف أن يفكروا فيها ويضموها إلى مشروع مستقبلهم، ولكنهم لم يفعلوا، فيأخذ الأخلاف على عاتقهم تحقيق هذه الممكنات ويتبنوها كجزء من تراثهم ويجعلونهم جزءاً مما ينشغل به تفكيرهم في المستقبل، انشغالاً واعياً أو لا واعياً"[24]. إضافة إلى ذلك هناك نوع مختلف لحضور الماضي في فكرتنا عن الهوية، إنه "آخر الأجداد"، وما لعبه ذلك الآخر من دور في إحباط طموحات الأجداد والحد منها[25]، وعلى ذلك فإن التفكير في الهوية يمكن أن يكون نوعاً من التحرر من تلك الصورة للآخر القديم، وهو آخر يظهر معاصراً بأشكال وطرق مختلفة.

3) الآخر: يربط الجابري بين الأنا والآخر بعلاقة وثيقة، حيث إن الآخر لطالما كان من العوامل المؤثرة على الأنا، ولذلك اعتبر أن مشكلة الآخر في غاية التعقيد والتشابك، لأن تهديدات هذا الآخر، كثيراً ما تدفعنا إلى الاحتماء بالماضي وتمجيده. ولذلك يريد منا الجابري أن نجعل من الآخر سبباً في نهضتنا وليس سبباً في تراجعنا وانطوائنا على ماضينا، ولكن كيف يتحقق هذا الأمر؟ الجواب هو عندما نتمكن من التحرر مما يسميه ميكانيزم الدفاع، والعمل وفق "ميكانيزم النهضة". وذلك بسبب أن مشكلة ميكانيزم الدفاع هي أن الإنسان يصبح فيها مسلوباً أمام ماضيه بحيث يتحول الماضي إلى هدف بحد ذاته، لأن الماضي هو الكيان الأساسي الذي يحتمي به، فبدونه يشعر أن ليس له من وجود أو مستقبل. أما اللجوء إلى استراتيجية

([22]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية- العروبة والإسلام والغرب، مرجع سابق، ص90-91.
([23]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية- العروبة والإسلام والغرب، ص89.
([24]) المرجع السابق، ص92.
([25]) المرجع نفسه، ص93.

ميكانيزم النهضة فإن المقصود به أن الإنسان لا يلجأ إلى الماضي من أجل ذاته، بل إنه يستعيد الماضي ويعمل على إحيائه، من أجل أن يساعده الماضي على تجاوز تحديات الآخر، بحيث يكون الهدف من استعادة الماضي هو المستقبل وليس الماضي نفسه[26].

وهذا يعني في النهاية أن التفكير في "الآخر"، الذي هو الأساس في وعي الإنسان بهويته، ولاسيما في عصر النهضة العربية، أمر لابد تحديده بشكل دقيق، حتى لا ينقلب إلى عامل من عوامل معوقات النهضة المنشودة في المستقبل. ويبدو أن هذا هو الاختلاف الرئيس بين النهضة الأوروبية والنهضة العربية الحديثة، فالأولى قامت بفعل عوامل داخلية أولاً، ولم يلعب فيها الخطر الخارجي للآخر أي دور يمكن ذكره، وذلك بعكس الثانية التي لعب "الآخر الغربي" دوراً أساسياً في نشوئها. وهذا هو مصدر التعقيد في مشروع النهضة العربية، حيث لعب الآخر الغربي دوراً مزدوجاً، فهو من جهة "العدو" الذي يريد استعمارنا ونهب ثرواتنا، وتحويلنا إلى شعوب ودول تدور في فلكه، وهو من جهة ثانية "النموذج" الذي يغرينا بالاقتداء به[27].

ويبدو أن هذه الوضعية المعقدة هي التي جعلت الأمر ملتبساً على العرب بين ميكانيزم الدفاع وميكانيزم النهضة، فنحن عندما تسيطر علينا فكرة الغرب بوصفه عدواً نستحضر ميكانيزم الدفاع، وعندما يسيطر علينا فكر الغرب بوصفه نموذجاً يمكن أن نحتذي به نستحضر ميكانيزم النهضة. وعلى ذلك فإن العلاقة بين الأنا والآخر لم "تقم على الاتصال ولا على الانفصال، وإنما على التنافر أو التدافع، والنتيجة تشويش الحلم النهضوي في وعينا وتعتيم الرؤية في فكرنا"[28]. وهذا ما تم التعبير عنه بمشكلة: الأصالة والمعاصرة.

وبهذه الوضعية المعقدة يفسر الجابري ركود وتكلس الفكر العربي المعاصر، حيث انقسم بين "تقليديين" و"مجددين"، لم يتمكنوا في النهاية من الخروج من تلك الوضعية المتشابكة. يوضح الجابري ذلك بالقول: "إن الصراع في الوطن العربي لم يكن في القرن الماضي ولا هو في هذا القرن صراعاً بين قوى التجديد وقوى التقليد وحدها، بل لقد أخذ الصراع، وما زال يتخذ، مظهراً آخر مزدوجاً ومعقداً هو الصراع ضد الغرب ومن أجله في آن واحد، ضد عدوانه توسعه من جهة، ومن أجل قيمه الليبرالية ومظاهر تقدمه من جهة ثانية"[29].

ج) الهوية والعولمة وصراع الحضارات:

1) الهوية والعولمة:

إذا ما انتقلنا إلى مسألة علاقة الهوية بالعولمة فإننا نجد أن الجابري يتساءل هل هناك تقابل بين الهوية والعولمة؟ وإذا كان ذلك فبأي معنى يكون هذا التقابل؟ وللإجابة على مثل هذه التساؤلات يؤكد الجابري أن إشكالية العولمة ليست خاصة بالمجتمعات النامية، وما تشكله هذه الظاهرة من خطر اقتصادي

([26]) محمد عابد الجابري، إشكالات الفكر العربي المعاصر، ص26، محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ص72-83.

([27]) محمد عابد الجابري، إشكالات الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق،ص27.

([28]) المرجع السابق، ص27.

([29]) محمد عابد الجابري، إشكالات الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق ، ص28.

وثقافي وسياسي عليها، بل إنها أيضاً – قبل ذلك – إشكالية في العالم المتقدم نفسه[30]. فالعولمة هي إشكالية في الغرب، قبل أن تكون إشكالية للشرق.

ولكن كيف يكون ذلك؟ يعتقد الجابري أن مناقشة العلاقة بين العولمة والهوية تتم عبر تصحيح لبعض الأفكار عن العولمة، وهذا يتم بإعادة توضيح بعض "الأفكار الجاهزة" التي كوناها عن العولمة، من خلال إعادة النظر فيها الأمر الذي يمنحه فرصة إقامة العلاقة بين العولمة والهوية على أسس جديدة، ومن هذه الأفكار:

أ) العلاقة بين الهوية والعولمة "إشكالية" وليست "مشكلة": وهذا يعني أنها قضية معقدة أكثر من كونها بسيطة، ومفتوحة أكثر من كونها قابلة للحلول الجاهزة. ولذلك نجد الجابري يتحدث عن "إشكالية" وليست "مشكلة"، لأن "المشكلة" يمكن الوصول إلى حل يلغيها، كما أن "المشكلة" عموماً هي ما ينتهي إلى حل، أما "الإشكالية" فهي قضية ما زالت تعاني الالتباس، ولم تصل بعد إلى الاستقرار النظري الذي يصوغها على نحو نظرية كلية. فالإشكالية هي منظومة متشابكة من العلاقات المترابطة لا تتوفر إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل، إلا في إطار حل عام يشملها جميعاً[31].

وعلى ذلك فإن الإشكالية بين الهوية والعولمة تعني أنها[32]:

- منظومة من العلاقات، وليست بعلاقة بسيطة وحيدة الاتجاه.
- يدخل في تكوينها فكر الأفراد، وفكر الجماعات، وفكر الأمم.
- يدخل في العلاقة بين العولمة والهوية جوانب اقتصادية وتكنولوجية ومعلوماتية وثقافية وحضارية.
- لا يمكن البحث عن حل منفرد للعولمة أو الهوية. فاليوم لا يمكن إيجاد حل للمشاكل التي تطرحها العولمة من دون الاصطدام بظاهرة العولمة.

وفي جميع الأحوال يعتقد الجابري أن الحل الذي يمكن أن نتوصل إليه حلاً نظرياً، أما من الناحية العملية فالأمر مختلف. ولذلك فإن أقصى ما يمكن للمرء أن يتوصل إليه في هذه الإشكالية هو إمكانية صياغتها بشكل أقرب إلى الموضوعية، والتوصل إلى نوع من المصالحة داخلنا بين عناصر متصارعة.

ب) مقاربتنا للعولمة مقاربة أيديولوجية وليست علمية: فالجابري لا يكتفي بنقل البحث في العلاقة بين العولمة والهوية من مجال المشكلة إلى مجال الإشكالية، بل ويحاول تخليصها من الطابع الأيديولوجي ويدخلها في ميدان "البحث العلمي". والفرق بين الأيديولوجيا والبحث العلمي كبير، فالأيديولوجيا تريد إثبات ما ترغب في إثباته بوصفه حقيقة، وعلى ذلك فالخطاب الأيديولوجي ينطلق من أنه يمتلك الحقيقة مسبقاً. وفي المقابل فإن البحث العلمي يريد الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن التحديدات المسبقة والإعلان عن امتلاكها منذ البداية. فالحقيقة العلمية تقوم على الموضوعية، أي التعامل مع الموضوع بعيداً عن آرائنا وعواطفنا، مثلما تقوم على إمكانية التحقق[33].

([30]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – ملاحظات منهجية، ص34.
([31]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – ملاحظات منهجية ص34.
([32]) المرجع السابق، ص35.
([33]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – ملاحظات منهجية، ص35.

فمشكلة الأيديولوجية أنها "خطاب"، والخطاب "رسالة من ذات لأخرى تنقل (حقيقة) يطلب من الذات المتلقية، ليس فقط أن تسلم بها، بل أيضاً أن تعمل بها"[34]. وهذا يعني أن الخطاب الأيديولوجي حول مسألة العلاقة بين العولمة والهوية خطاب عقيم، وغير تفاعلي، وهو لا يفعل شيئاً سوى دفع الآخر إلى تبني وجهة نظر الذات دون اعتبار لوجهة نظر ذلك الآخر. إذ من الممكن أن يقول أحدهم: "يجب أن نأخذ بالعولمة وننخرط فيها ونعمل في إطارها إذا نحن أردنا أن نعيش في المستقبل. وقد يضيف: أما الهوية فهي تنتمي إلى الماضي. وقد يقول آخر: يجب أن نقف في وجه العولمة لأنها تنطوي على غزو يمارسه الآخر علينا. وقد يضيف وهو غزو يتجاوز مستوى السلع والاقتصاد لأنه يستهدف الثقافة، وبالتالي الهوية والكيان"[35].

والمشكلة في مثل هذا المنطق أنك إذا أخذت بإحدى وجهتي النظر تبقى في حالة من القلق وعدم الراحة، لأنك تشعر أنك أمام رأيين متناقضين، ولكن كل منهما له نصيب من الحقيقة، دون أن يعني أن أحدهما قد يوقعك في "الاستلاب العولمي"، والثانية توقعك في "التقوقع الهوياتي"[36].

د) العولمة ظاهرة تكنولوجية قبل أن تكون اقتصادية: فعلى الرغم من اهتمام الجابري بالجانب الاقتصادي لظاهرة العولمة، وكيف أنها أصبحت ظاهرة اقتصادية عالمية تهدد الدول وسيادة الحكومات، وتسعى إلى تكوين مجموعات كبرى هي التي تتحكم بالعالم والسياسات والسوق في مختلف أرجاء المعمورة[37]، إلا أنه يعتقد أن الجانب المهم والمؤثر في العولمة اليوم هو الجانب التكنولوجي، ويقصد به شبكة المعلومات والإنترنت وأنظمة البرمجة والتحكم عن بعد، فهذا الجانب يتعدى تأثيره ما يعتقده الكثيرين من أنه جانب ثانوي، أو جانب شكلي يساعد في تقدم المعرفة العلمية ويسهل التواصل لا أكثر.

فالجانب التكنولوجي للعولمة قدم لنا ما يمكن وصفه بالمواطن العالمي "الذي يعيش خارج الحدود السياسية، ولا يخضع لسلطات البلدان، وينتقل بين حدود الجغرافيا وهو جالس في مكانه، الأمر الذي أدى إلى ظهور هوية خاصة لهذا (المواطن الإنترنتي) من حيث إنه يعيش في عالمه الواقعي الذي يعيشه كل الناس، ولكنه يختلف عنهم أنه يعيش أيضاً (عالم سيبراني) واعتباري، خيالي بقدر ما هو واقعي"[38].

وعلى ذلك فإن العولمة قد تفتح آفاقاً جديدة فيما يتعلق بمسألة الهوية، لأن الجابري يرجح أن تؤدي هذه الظاهرة إلى ظهور نوع جديد من الهوية، يتعدى التقسيمات التقليدية بين هوية الأصالة وهوية المعاصرة، أنها هوية لا تضع أي تقابل بين الهوية والعولمة، لأنها تجمع مجموعة من الناس، تزداد كل يوم، يبحرون كل يوم في العالم الاعتباري الشبكي عالم الإنترنت، وهم جالسون في منازلهم أو في المقاهي السبرانية، يكتسبون كل يوم سلوكيات فكرية وعملية، وقيماً ورؤية للعالم، تتشكل منها هوية الكائن البشري الجديد[39].

والطريف في هذه الهوية الجديدة التي تقدمها لنا العولمة أنها "متحررة من المسافة الزمانية والمكانية، وبالتالي المحددين الأساسيين للهوية: الجغرافيا والتاريخ، ذلك لأن العالم الذي تقدمه لنا شبكة

([34]) المرجع السابق، ص36.
([35]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي، – ملاحظات منهجية،مرجع سابق، ص36.
([36]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – العولمة والهوية بين عالمين، مجلة الوسط، لندن، العدد 389، 1999/7/12، ص34.
([37]) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص151.
([38]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – العولمة والهوية بين عالمين، ص35.
([39]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – العولمة والهوية بين عالمين، مرجع سابق، ص36.

الإنترنت أشبه بظل للعالم الواقعي الذي نحياه في يومياتنا، إنه عالم يقدم المثال الذي يتحقق فيه الكمال الذي يخلو منه عالمنا الأرضي الواقعي... العالم الجديد الذي أنتجته العولمة، أو تقدمه وسائل الاتصال في إطار العولمة، هو عالم جديد تماماً"[40].

2) الهوية والاستشراق وصراع الحضارات:

كثيراً ما تثير أطروحات المستشرقين وأساتذة المراكز الذين يدرسون الشرق، والعلاقة بين الغرب والإسلام، مسائل تتعلق بالهوية والعلاقة بين الثقافات والحضارات. وتعتبر نظرية هينتنجتون عن صراع الحضارات التي قدمها في مقال له عام 1993، ثم في كتاب مستقل عام 1996، أسماه "صدام الحضارات"، أكثر نظرية أخذت صدى واسعاً من ردود الفعل، وحيزاً واسعاً من المناقشات.

ولعل ما يلفت الانتباه في هذه النظرية ليس مضمونها وإنما توقيتها بالدرجة الأولى، فهي نظرية أتت في وقت أخذ فيه العالم الغربي، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، يجني انتصاره المدوي على العالم الشيوعي، حيث بدأ الحديث عما يسمى ب"النظام العالمي الجديد" بقيادة العالم الغربي، إذ بدأ هذا الغرب يتحدث عن "نهاية التاريخ" وسيادة النموذج الرأسمالي على العالم في المستقبل[41]، بحيث لم يعد على الشعوب سوى أخذ هذا النموذج، والبدء بتطبيقه كل بحسب الظروف المحلية التي يعيشها.

أما نظرية صدام الحضارات فتقول إن العالم المعاصر يشهد تسارعاً متزايداً "بالوعي بالهويات"، وأن هذا الوعي هو السبب في تزايد العنف في العالم. يذهب هنتجنتون إلى أن العالم اليوم يعتقد أنه على مفترق طريق جديد بعد نهاية الحرب الباردة وما خلفته من تداعيات. أما أهم صراع سيجتاح العالم المعاصر فهو الصراع بين الإسلام والغرب [42]، ويعود ذلك الصراع إلى أن الإسلام يعاني من العدوانية تجاه الآخرين، وأنه يميل إلى القوة في حسم خلافاته على مدى التاريخ، فالمسلمون بحسب هنتجنتون هم الأكثر تورطاً في العنف أكثر من أي شعب آخر، وأنهم "يخوضون حروباً أكثر من أي جماعة في أي حضارة أخرى"[43].

وبناء على ذلك فإن مبررات الصراع تعود إلى ما في الإسلام من نزعة عدوانية، يمكن أن تجتاح العالم، وتهدد الغرب نفسه، إذا لم يتم معالجة الأمر. فالغرب كان يواجه عدوين لدودين هما الشيوعية والإسلام، وبما أن الشيوعية سقطت فلم يبق سوى الإسلام، حتى إن هنتجنتون يذهب إلى أن صراع الغرب مع الشيوعية يكاد يكون "ظاهرة سطحية زائلة" إذا ما قورن بالصراع بين الغرب والإسلام، والذي تمثل تاريخياً بالصراع بين الإسلام والمسيحية[44]. وبالتالي فإن مستقبل العلاقة بين الإسلام والغرب هو الصراع والحروب، وأن الإسلام هو الذي يتحمل مسئولية ذلك، وهذا يعني أن على الإسلام تغيير ذاته، وتعلم التحضر وقبول الآخر من الحضارات الأخرى، وإلا فإنه سيبقى يعاني كثيراً. وبناء على ذلك نجد أنه ليس من الصعب علينا اكتشاف النزعة الذاتية الموجودة في نظرية هنتغتون، وموقفه الإيديولوجي من الإسلام.

([40]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – العولمة والهوية بين عالمين، مرجع سابق ص36.

([41]) فوكوياما فرانسيس، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993، ص8.

([42]) صموئيل هنتغنتون، صدام الحضارات، مرجع سابق، ص414.

([43]) صموئيل هنتغنتون، صدام الحضارات، مرجع سابق ، ص418.

([44]) المرجع السابق، ص338.

كما يحق لنا أن نتساءل هل قرأ هنتنغتون التراث الإسلامي، ومصادر التشريع فيه قبل إطلاق حكمه عن الإسلام، إن نظرية هنتنغتون هذه نظرية تقلب الموازين وتجعل من الضحية جلاداً، فلطالما عانت الدول الإسلامية من اعتداءات الحضارات الغربية، على ما يبدو باعتقادي إن تنظير هنتنغتون للصراع الإسلامي الغربي، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، قائم على فكرة أن الغرب لا يستطيع التخلي أبداً عن عدو مفترض يحاربه.

يقف الجابري مطولاً عند هذه النظرية، محاولاً كشف ما فيها من مغالطات وأهداف أيديولوجية، لأن نظرية صراع الحضارات تحمل قدراً كبيراً من الأوهام، الأمر الذي يستوجب منا نحن المسلمين، المستهدفين من هذه النظرية، العمل على فضحها، فضلاً عن وجوب تعميم الوعي بمضمونها وأهدافها[45]. هذا ويمكن إيجاز نقد الجابري لنظرية صراع الحضارات بالنقاط التالية:

أ) يذهب الجابري إلى أن نظرية صراع الحضارات نظرية سياسية، لا يراد منها سوى تبرير سياسات بعض الحكومات الأمريكية، وإعطائها نوعاً من المعقولية، وذلك لصالح الفساد الإداري والمالي الذي يستشري في بعض المنظمات التي تهيمن على القرار الأمريكي. وإذا خصصنا كلامنا أكثر فإن الأمر يتعلق بتبرير صرف كمية كبيرة من الأموال لوزارة الدفاع الأمريكية عبر التطبيل للحروب، والتهويل من الخطر الإسلامي الخارجي. يقول الجابري في ذلك: "أما أطروحة (صدام الحضارات) فهي تتحدث عن المستقبل وتنذر بخطر المواجهة والحرب وتدعو صراحة إلى أخذ الحيطة والاستعداد للدفاع عن النموذج الحضاري الأمريكي وعن المصالح التي يقوم عليها، وبالتالي تخصيص ما يلزم من الأموال لذلك"[46].

ب) تريد هذه النظرية أن تؤسس لحرب باردة جديدة هي الحرب بين الإسلام والغرب، بدل الحرب التي كانت تدور بين الغرب والشيوعية. فنظرية صدام الحضارات، تشكل تعبيراً عن اتجاه غربي أخذ يتصاعد بعد انهيار الشيوعية، يدعو إلى التحريض على الإسلام وتضخيم ما أخذ يعرف ب"الإسلام فوبيا"، سيما عند المستشرق برنارد لويس، وعدد كبير من الصحفيين الأمريكيين المرموقين، والذين يأتي على رأسهم الكاتب باري بوزان الذي طرح نظرية (المركز والأطراف) والتي يرى فيها أن العالم الثالث أو الأطراف ليس اليوم سوى "مغانم أيديولوجية" للغرب أو المركز[47]. ويخلص الجابري إلى أن نظرية صراع الحضارات نظرية غير عقلانية وتعج بالمتناقضات لأنها تنطلق من فرضية أيديولوجية، وليست فرضية علمية، وأنها أشبه ببيان يسبق الهجوم[48]. تقوم هذه الفرضية على أن مصدر الصراع القادم لن يكون صراعاً اقتصادياً كما كان بل سيكون صراعاً حضارياً.

ج) تندرج هذه النظرية، وغيرها من الأفكار التي يكونها الغرب عن الشرق، ضمن ما يسمى بالغزو الثقافي للعالم العربي والإسلامي، الذي يراد منه الهيمنة الثقافية على شعوب هذه المنطقة، ودفعها إلى تبني أفكار سلبية عن ذاتها. والملفت للانتباه أن هذا الغزو أخذ يستغل التداخل الثقافي الواسع بسبب وسائل التكنولوجيا والإعلام الحديثة، مثلما أخذ يسخر العلوم الإنسانية، وما أخذ يعرف بالدراسات الاستراتيجية، لطرح نظريات ذات شكل علمي أو فكري وقور، في حين أنها في النهاية تخفي داخلها مصالح سياسية، وأحياناً أحقاد تاريخية لم يستطع الغرب المتقدم التحرر منها. والمشكلة الكبرى بالنسبة للجابري أن "فكر

([45]) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص86.
([46]) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق ، ص84.
([47]) المرجع السابق ، ص90.
([48]) المرجع نفسه، ص94.

الثقافة المهيمنة عالمياً يتلقاه المثقفون العرب فيجترون قضاياه ومشاكله ومستجداته في إطار التبعية والانسلاخ عن الذات، وربما أيضاً باستسلام وانبهار وتنكر للهوية الوطنية والقومية"[49].

د) إن الحروب ليست ذات دوافع دينية دائماً، كما أن الحروب التي خاضتها الأديان الأخرى، غير الدين الإسلامي، لا تعد ولا تحصى، ومنها الحروب بين فرنسا والهند الصينية، وحرب فيتنام، والحرب الأهلية الأمريكية، وغيرها الكثير والكثير. وهذا يعني أنه ليس للإسلام أي دور في عدد كبير من الحروب الكبرى، بل على العكس إن للغرب ودولة الاستعمارية هي التي خاضت أكبر الحروب في مختلف العصور التاريخية، ولاسيما الحديثة[50].

هـ) إن الصراع الذي سيمتد في المستقبل بين الإسلام والغرب، هو أساساً صراع بين القوى الاستعمارية العالمية من جهة والشعوب المتطلعة للتحرر من جهة أخرى. وهذا يعني أن الصراع في جوهره، صراع سياسي وليس صراع حضاري، فالشعوب العربية والإسلامية عندما تواجه الغرب فإنها لا تواجهه بوصفه حضارة، بل بوصفه قوى استعمارية تسعى للهيمنة، الأمر الذي يعني أن هنتجنتون يستعمل كلمة "حضارة" بصورة وهمية أحياناً، وبشكل يخفي داخلها مصالح سياسية أحياناً أخرى[51].

3) أهمية مفهوم الهوية عند الجابري:

لقد حاول الجابري جاهداً انتشال مفهوم الهوية من الكثير من الغموض والالتباس الذي عانى منه لفترة طويلة، مثلما حاول تحريره من الصراعات الإيديولوجية، وصراع الحضارات، بغية نشر مفهوم للهوية أكثر واقعية، وأكثر استجابة لمتطلبات المرحلة الحالية في التنمية والتقدم والازدهار، مفهوم يتجه إلى المستقبل أكثر مما يتجه إلى الماضي، يتجه إلى الذات أكثر من اتجاهه إلى الآخر، مفهوم يحافظ على الخصوصية دون أن يحاول الانغلاق، مفهوم متحرك أكثر منه ساكن.

ولتحقيق ذلك يمكن استخلاص مجموعة من النقاط التي تحدد إسهامات الجابري في مسألة النقاش حول الهوية في الفكر العربي المعاصر، ويمكن تحديد تلك الإسهامات بما يلي:

أ) الهوية مفهوم سياسي واقعي: فلقد كان الجابري حريصاً كل الحرص على انتزاع مفهوم الهوية من العناصر الإيديولوجية التي كبلته وجعلته مفهوماً يقسم المفكرين العرب إلى قسمين، إما إسلاميين، وإما ليبراليين، إما قوميين وإما إسلاميين، إما مدافعين عن الأصالة وإما متحمسين للحداثة. حيث إنه رأى أن هذه الثنائيات مزيفة لأن التقابلات هي في حقيقتها تقابلات وهمية، إذ ما الذي يدفعنا إلى الاختيار بين الحداثة أو المعاصرة، دون التفكير في إمكانية التوفيق المنهجي بين الخيارين، وهل هناك أصلاً من تعارض بين الحداثة والأصالة، وهل كانت هذه الثنائيات أصلاً موجودة في التجارب النهضوية الكبرى في العالم.

ومن خلال ما سبق نستطيع أن سنجل للجابري محاولته التوفيق بين مختلف تلك الثنائيات، مستلهماً تجارب شرقية وأوروبية عديدة. فكل الشعوب الناهضة والمتقدمة والسائرة في طريق التقدم لم تتخلى عن أصالتها وتراثها، ولم يتحول هذا التراث إلى عبء أعاق عملية التقدم، فلماذا يكون الأمر على هذه الشاكلة بالنسبة للعرب والمسلمين؟ إنها الأوهام والأيديولوجية ببساطة، والابتعاد عن مفهوم سياسي واقعي للهوية،

([49]) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر المعاصر، مرجع سابق،ص75.
([50]) محمد عابد الجابري، قضايا الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص97.
([51]) المرجع السابق ،ص99-100.

فالواقعية والولوج إلى عمق المفاهيم هو الذي يكشف زيف الكثير منها، مثلما يكشف السلطات القابعة خلف تلك المفاهيم[52].

ب) تحرير الهوية من الإيديولوجيا: على الرغم من سعي الجابري لإقامة مفهوم "الهوية" على أسس علمية، أو البحث العلمي على حد تعبيره، واعتقاده بإمكانية تحريره من "الخطاب الأيديولوجي" القائم على الأحكام المسبقة، والاعتقاد بامتلاك الحقيقة مقدماً، إلا أن مثل هذا الأمر لا يمكن التسليم به بشكل كامل، لأن مفاهيم الهوية، والقومية، والتراث، وصراع الحضارات، مفاهيم لا يمكن تحريرها من الأيديولوجيا والمشاعر القومية والانتماءات المذهبية بشكل كامل. ولعل هذا التدخل بين مفهوم الهوية والعناصر الأيديولوجية والدينية والعقائدية هو الذي جلب الكثير من المشاكل على الإنسان عندما يحاول تحديد هويته[53].

وهذا ما كنا قد وجدناه من خلال بحثنا بالفصل الأول باعتبار أن الهوية تدخل فيها عناصر كثيرة تتعلق بالناحية النفسية للفرد، وبتأثير المحيط الاجتماعي عليه، والدور الذي تلعبه مرجعيات الهوية، ناهيك عن دور اللغة والذاكرة والانتماءات العرقية والمذهبية، ومختلف العناصر الثقافية والتراثية[54]. وبالتالي فإن إخضاع مثل هذه الدراسة لبحث علمي يحرر مفهوم الهوية من "العناصر الذاتية" وبناءه على أسس موضوعية، مثل كل الظواهر التي يدرسها العلم أمر يواجه صعوبات كثيرة، دون أن نقلل من أهمية التحليلات التي قدمها الجابري لمفهوم الهوية، وتحريره لها من الكثير من الأوهام والتناقضات.

تلك التحليلات التي كانت تعكس موقف الجابري من مفهوم الهوية والذي هو في النهاية موقف علمي، بمعنى أنه حاول قدر الإمكان التنزه عن العناصر الذاتية والعواطف والمشاعر التي كثيراً ما تؤدي بفكر عدد من المثقفين المنظرين للشأن العام، فهو من جهة وجه نقداً عقلانياً للتراث، ولم يترد في استخراج ما فيه من عيوب ونواقص، ولم يتوان عن تطبيق المفاهيم الغربية على التراث الإسلامي بعد تهيئة التربة المناسبة لها[55]، كما أنه من جهة ثانية كان شديد التأكيد على العناصر الاستعمارية للغرب، ومتنبهاً لسياسات الهيمنة، والغزو الثقافي الذي يمارسه الغرب علينا[56]، والذي يريد من ورائه دفعنا لكي ندور في فلكه: ثقافياً، واقتصادياً، وحضارياً.

ج) الهوية مفهوم ديمقراطي: لقد كان الجابري حريصاً كل الحرص على أهمية تطبيق الديمقراطية في العالم العربي، حيث إنه لم يكن من الذين يؤيدون تأجيل قضية الديمقراطية من أجل إنجاز قضايا أخرى، بل إنه على العكس تماماً. فهو يذهب إلى أن كل المفاهيم الثقافية والسياسية والإسلامية من: هوية، وقومية، ووحدة عربية، وتطبيق للشريعة الإسلامية، ومواجهة العولمة...إلخ، أمور لن يكتب لها النجاح إلا إذا تمت على قاعدة التأكيد على أولوية الديمقراطية، لأن الديمقراطية بالنسبة إليه "مشكلة المشاكل"، ولا يمكن تجاوزها بأي شكل من الأشكال، ولا يمكن حل أي مشكلة أخرى دون حلها[57].

([52]) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص24-27.
([53]) محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية، مرجع سابق، ص34-36.
([54]) أحمد زايد، سيكولوجيا العلاقات- قضايا في الهوية الاجتماعية سلسة عالم المعرفة الكويت 2006، ص19-20.
([55]) محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص250.
([56]) محمد عابد الجابري، قضايا الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص94-97.
([57]) محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر المعاصر، مرجع سابق ،ص107.

ومن خلال ذلك يمكن أن نعتبر أن موقف الجابري هذا كان موقفاً متقدماً إذا ما قيس بمواقف المفكرين العرب في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، الذين حاولوا التشكيك في الديمقراطية، واعتبارها المنفذ الذي يريد الغرب المرور منه إلى العالم العربي والإسلامي واختراق خصوصيته الحضارية، أو بحجة أنها لا تناسبنا حضارياً، ناهيك عن وجهة النظر التي تقول إننا غير مستعدين لها، وأنها قد تهدد وحدتنا وقوميتنا، وتثير النزعات الانفصالية، وتدفع بالأقليات إلى النزوع نحو الاستقلال، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تمزيق الوطن العربي.

وقد وصل الأمر بالجابري إلى أنه اتهم النخب وقيادات الأحزاب السياسية، وعدد من المثقفين البارزين بأنهم يخافون من الديمقراطية، والسبب في ذلك أن علاقة هذه القوى بمجتمعاتها ليست بالعلاقة التي تسمح لها بالفوز في حال تم تنظيم انتخابات ديمقراطية[58]. ولذلك نجده في مختلف كتاباته يشن حملة شعواء ضد كل القوى التي تناهض الديمقراطية، وهي للأسف كثيرة في المجتمعات العربية. ولذلك ليس من الغريب أن يعزو الجابري التضخم في مفهوم الهوية في الثقافة العربية المعاصرة إلى "غياب الديمقراطية"، وتعثر الشعوب في التعبير عن ذاتها ومصالحها، وفقدانها لحقوقها السياسية، فالتعبير "الديمقراطي الحر والاعتراف بالاختلاف والتغاير وتداول السلطة...إلخ، هي الشروط الضرورية التي تضمن تصريف الحركة والصراع في الوطن العربي تصريفاً سلمياً بناء"[59].

د) هاجس الهوية نتيجة وليس مقدمة: إن التفكير بالهوية والاحتماء وراءها والتأكيد عليها أمر مرتبط بالتعثر في مجالات أخرى، أو ناتج عن تزايد التهديدات من قبل الآخر. وعلى ذلك فإن التخفيف من فوبيا الهوية في الفكر العربي المعاصر، أمر منوط ليس بفكرة الهوية ذاتها، بل بالعوامل التي تهيج الشعور بالهوية في نفوسنا. فالجابري مدرك أنه بدون حل لمسألة الديمقراطية والعمل على تذليل المعوقات التي تواجهها، ستبقى مسألة الهوية من الأولويات التي يفكر فيها العرب والمسلمين. وإذا لم يوضع حداً لسياسات العولمة والغزو الثقافي التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي، وما يرافق هذه السياسات من أطماع استعمارية ومخططات إمبريالية، لن يجد العربي أو المسلم سوى الهوية لكي يحتمي فيها ضد تلك السياسات والأطماع[60].

وبناء على ذلك تصبح مسألة الهوية مسألة كلية ومعقدة، وأن التمسك بالهوية ليس هو الحل، كما يعتقد الكثيرين. فالتمسك بالهوية بشكل مبالغ فيه هو تعبير عن المشاكل التي تدفع للتشدد في التمسك بالهوية، فالجابري ليس ضد مسألة التمسك بالهوية، ولكنه أيضاً ينبه للمشاكل والملابسات التي تدفع الفرد إلى تقديس هويته، وإحاطتها بنوع من الهالة المبالغ فيها.

هـ) الهوية تعبير عن هاجس الغرب في مجتمعاتنا: إن أسلوب التعامل مع الغرب الذي يهدد هويتنا عبر اللجوء إلى الأخذ بمنجزاته التكنولوجية والمعرفية، ورفض كل الأفكار والأيديولوجيات القادمة منه، هو أسلوب اعتقد عدد كبير من المثقفين والقوى العبثية أنه الأسلوب الأنجع للتعامل مع الغرب، فهذا الأسلوب يحقق من جهة الحافظ على هويتنا من الفكر الاستلابي الغربي، كما أنه يتيح لنا الأخذ بالمنجزات العلمية الغربية، وهي منجزات لم يعد أحد قادراً على تجاهلها. غير أن مثل هذا الأسلوب السهل، والمتصف بمتعة

([58]) محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، سلسلة كتاب في جردة، منظمة اليونسكو2006، ص11.
([59]) المرجع السابق، ص12.
([60]) محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام، مرجع سابق، ص39.

عقلية ساذجة، يحمل كثيراً من التناقض كما يقول درايوش شايفان في كتابه "أوهام الهوية"[61]، لأنها توقعنا فيما يسميه ب"الشيزوفرينيا الابستمولوجية" لأن الأخذ بالمنجزات الغربية يستدعي قبول قيم الحداثة أولاً، ونقد التراث لكي يستطيع استيعاب منجزات ذلك الغرب ثانياً، فالأمر ليس بتلك السهولة، لأن القيم أهم من الآلات[62].

وفي السياق ذاته يعمل الجابري على نقد كيفية تعامل العالم العربي الإسلامي مع الغرب، بوصفه أكبر قوة تكنولوجية ومعرفية واستعمارية في نفس الوقت. ولذلك نجده يقترح التمييز بين الغرب بوصفه قوة معرفية وعلمية هائلة أولاً، وبوصفه يحمل قيم الحداثة القائمة على العقل وحقوق الإنسان ثانياً وبوصفه أكبر قوة استعمارية في العالم المعاصر ثالثاً. والغرب المرفوض الذي لابد من مواجهته هو الغرب بالمعنى الثالث، أما بالمعنى الأول والثاني فإنه لابد من التثاقف معه وتأمل تجربته الحضارية بعناية، وعلى ذلك فإن تخويف الشعوب العربية والإسلامية من الغرب أمر يصب في مصلحة السلطات السياسية والدينية المحلية التي تريد الهيمنة على تلك الشعوب[63]. فالهوية تضعف كلما كانت الأسوار التي تحيط نفسها بها عالية، وتصبح أقوى وأكثر حيوية وفاعلية كلما كانت منفتحة وتعمل على التفكير في ذاتها بشكل مستمر.

ولكن يمكن أن نتعرف أكثر على كيفية تعامل الفكر العربي المعاصر في المغرب العربي مع مفهوم الهوية، إذا تناولنا مفكراً مغربياً آخر، ولكن هذه المرة مفكر يعيش في الغرب، ويكاد يفكر من داخل المناهج الغربية، لنرى إذا ما كان هذا الأمر قد أثر على كيفية تفكيره في قضية "الهوية"، وما هي المحددات التي أقام من خلالها الهوية الإسلامية.

([61]) داريوش شايفان، أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلد، دار الساقي، بيروت 1993، ص71.
([62]) داريوش شايفان، أوهام الهوية، مرجع سابق، ص88-89.
([63]) محمد عابد الجابري، قضايا الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص81.

مراجع البحث

1. محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية،ط4 بيروت 2012.
2. محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الأيديولوجي، ملاحظة منهجية، مجلة الوسط، لندن، العدد 383، تاريخ 1995/5/31).
3. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت،ط1 1997.
4. محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت1993.
5. محمد عابد الجابري، مسألة الهوية – العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط4، 2012.
6. ارفنج إم. كوبي – كارل، كوهن، مدخل إلى المنطق، ترجمة محمود السيد أحمد، نجيب الحصادي، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، 2013.
7. محمد عابد الجابري، في غمار السياسة: فكراً أو ممارسة، ج3، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2010.
8. محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – ملاحظات منهجية،ط4،بيروت,1996.
9. محمد عابد الجابري، العولمة ومسألة الهوية بين البحث العلمي والخطاب الإيديولوجي – العولمة والهوية بين عالمين، مجلة الوسط، لندن، العدد 389، 1999/7/12.
10. فوكوياما فرانسيس، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993.
11. أحمد زايد، سيكولوجيا العلاقات- قضايا في الهوية الاجتماعية سلسة عالم المعرفة الكويت 2006.
12. محمد عابد الجابري، الديمقراطية وحقوق الإنسان، سلسلة كتاب في جردة، منظمة اليونسكو2006.
13. داريوش شايفان، أوهام الهوية، ترجمة محمد علي مقلد، دار الساقي، بيروت 1993.
14. صمويل هينتغتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، تقديم صلاح قانصوه، سطور، القاهرة، ط2، 1999.